تلقي جماليات النداء في سورة مريم

Receive the aesthetics of the appeal in Surat Maryam

أ.د. محمد عبدالرحمن أحمد محمد[1] *

[2] أ.د. محمد داؤد محمد داؤد

[1] جامعة جازان (السعودية)abderrahmanemohammad@gmail.com

[2] جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

تاريخ الاستلام: 2021/01/12 تاريخ القبول: 2021/03/02 تاريخ النشر: 2021/06/01

ملخص:

عالجت الدراسة جماليات التلقي في النص القرآني واختارت النداء في سورة مريم حقلاً لذلك، وسارت وفق المنهج الوصفي المدعوم بالوصف والتحليل ومرتكزات نظرية التلقي، وهدفت إلى الكشف عن جماليات التلقي في نداء زكريا ويحيى ومريم وإبراهيم حيث عرفت جماليات التلقي وبينت أدواته كالاعتدال والانسجام وغير ذلك، واستعرضت دلالة النداء وبلاغته وذكرت بالسياق العام لسورة مريم، ثم تناولت الجمل الندائية في السورة واستخلصت جوانب التلقي التي صاحبت قراءة جمل النداء وتوصلت لمجموعة من النتائج منها أن جماليات تلقي في نداء زكريا تكمن في الخروج عن المألوف والحذف الذي وسع مساحة الشعور والتخيل بين المعطى المحسوس والإدراك الحسي مما زاد قوة المعنى المراد، لكل فكرة إيقاعها المناسب من حيث طبيعتها وطريقة عرضها، يعد التنوع في الأسلوب والتردد بين الخبر والإنشاء في التركيب رافدًا أصيلًا في تابع النداء في السورة.

* المؤلف المرسل: أ.د. محمد عبدالرحمن أحمد محمد

Abstract

The paper addressed the aesthetics of reception in the Quranic text and selected 'call' (nida')in Surat Maryam as afield of study, based on the descriptive analyticalmethodand the principles of receiving theory. This paper aimed at revealing the aesthetics of receiving in calling Zakaria Yahya, Maryam and Abraham, defining the aesthetics of receiving, identifying its tools such as moderation and harmony, etc, and reviewing the denotation of 'call' (nida') and its eloquence and reporting the general context of Surat Maryam.The paper also identified the sentences pertained to 'call' in the Surah, showed the aspects of receiving that accompanied reading sentences pertained to 'call" (nida'). The paper revealed some finding some which were that the aesthetics of receivingin calling Zachariah lies the uncommon and omission which broadened the space offeeling and imagination between what is tangible and what is sensually realized which strengthened the intended meaning.Each idea has its favourable rhythm in terms of its nature and the way it is presented. The diversity in style and wavering between news and construction is considered a genuine source of 'call' (nida') in Surat Maryam.

مرتكزات التلقي الجملة الحوار النص

هنـاك العديـد مـن النظريـات والمنـاهج النظريـة والتطبيقيـة، الـتي نظّـرت في الشـأن اللغـوي قـديماً وحديثاً، منها ما اقتصر على فرع لغوي واحد، والأكثر منها صار جسراً بينيّاً رابطاً بين فروعين أو أكثر،

رمياً خلف بغية مختارة، وهدف مرسوم يلامس المعنى وفهمه، في جانب من جوانبه أو شكل من أشكاله، جاءت هذه الورقة لتحصد بعض لطائف المعنى وانعكاساته النفسية لدى المتلقي، مازجة بين اللغة والنقد والنحو وشيء من البلاغة والأسلوبية، منطلقة من نص قرآني مقدّس هو سورة مريم، هادفة إلى الكشف عن جماليات التلقي في نداء زكريا ومريم وإبراهيم، مستنطقة ما فيه من جماليات النظم والتركيب وإبداعات التصوير والتشكيل، مستعينة في تحقيق ذلك بالمنهج الوصفي، مقسِّمة نفسها إلى قسمين الأول: عن جماليات التلقي ومرتكزاته، والنداء وبلاغته، والسياق العام لسورة مريم، والقسم الآخر عالج الجماليات في نداء زكريا، وقصة مريم، وحوار إبراهيم مع أبيه، ثم كانت الخاتمة وفيها عنَّت النتائج ولاحت التوصيات.

جماليات التلقي:

يُعدُّ لفظ التلقي من المصطلحات النقدية اللغوية القديمة المتجددة، وقِدَمه نابع من خصوصية مفهومه المرتبطة باستقبال الرسالة اللغوية، وتجدده آتٍ من كونه مرتكزاً نظرية نقدية حديثة، تُعلى من سلطة القارئ في فهم النص وتحديد أبعاده كلها، وبمفهومنا الخاص يمكن أن نقول إن التلقي هو تحقيق الانفعال والوصول إلى التفاعل الوجداني لدى قارئ النص أو مستقبله أو مستهلكه. فالقارئ بما يملكه من خبرة ثقافية ومعرفة علمية وسعة تخيّل، يُكوِّن فهمه الخاص للنص فيسبر أغواره ويستنطق ما استغلق من معناه وكنهه، "وترتكز نظرية التلقي على أهمية إيصال المادة الأدبية وتقليبها على وجوهها لإدراك أبعادها الجمالية والمعرفية لذلك تصب اهتمامها على آلية الاستجابة والأدوات التي يحملها المتلقي عندما يواجِّه نصاً ما" (فطوم 2013: 5)، ومن مرتكزاتها كذلك التي حصرها بعض النقاد: "أفق الانتظار، والتحقق والتأويل والنص المفتوح والمسافة الجمالية والتأثير والتواصل" (الواد 1985: 80) وبمعنى أشمل حددت نظرية التلقي (القراءة) "بمجموعة من الآليات التي تعتمد عليها نظريات القراءة، كالمسافة الجمالية، وأفق انتظار القارئ، وملء الفراغات، والخطة الاستراتيجية، والقطب الفني والجمالي، والقطب الدلالي،والتناص، والسياق، والوقع الجمالي، والتأويل،والاتصال الأدبي،والمعنى، والنص المغلق، والنص المفتوح، والصورة الذهنية، وفجوات النص، والتفاعل، والروابط والاستنتاجات، والمعرفة الخلفية، والإطار المرجعي،والأعراف والتقاليد والقواعد، والتجربة المألوفة،والاستجابة، ولذة النص،وإشباع الرغبة،ومتعة القراءة، والهوية الذاتية... ومن ثمَّ، فقد كانت نظريات القراءة تتبع منهجية قائمة على الإدراك التوقعي والافتراض المسبق، والفهم الداخلي للنص، والتأويل السياقي والذاتي" (حمداوي، 2015: 9).

وللتلقي غاية جمالية معرفية، تشترك في تحصيلها الحواس الثقافية والتأمل والخيال، والمتلقي يعيد بناء الأثر المعرفي في النص ولكنَّه في الوقت ذاته يتذوق أبعاده الجمالية" (فطوم 2013: 5) ومن أهم عناصر الجماليات التي رصدناها ما يلي:

الشكل ويتمثل في الصورة التي تفرض علينا نوعاً من التركيز في المعنى، **والتواصل المنشود** الذي يحدد شكل الوعي ومضمونه بين منشئ النص ومتلقيه، و**الاعتدال** في وضوح المعنى والإبانة والبعد عن مناقضة المقصد، **والانسجام** بين العناصر المكوِّنة للنص المتمثلة في الفكرة والثيمة أو الفكرة الأساسية والأفكار الجزئية والجمل والكلمات والصور... "ولم يعد تخفى على دارسي النص الشعري؛ متذوقيه وناقديه أن الصوت المنبعث من الحزن والكلمة بأكملها لا يأتي به المبدع لمجرد الزينة ولأداء محسن شكلي، وباتت الدراسات التي تُعنى بالصوت وقيمته في النص الشعري تهتم بالبحث عن الدافع المعنوي، الذي جعل المبدع يختار صوتاً دون غيره... وبالتأمل والدرس المتأني نجد علة ذلك واضحاً من خلال ارتباط هذه الصوت بالدلالة التي يسعى نحوها النص" (الدسوقي، 2008: 185) و**الوحدة والتلازم، وقوة التخيّل، الإيجاز، كسر أفق التوقع** في تسجيل الرؤية القرائية وحصرها داخل جنس لغوي معين "فالمسافة الجمالية هي ما تحدثه الأعمال الأدبية الجيدة والحداثية من مسافة بين عالم النص وعالم القراءة، أو ما يحدثه من تفاوت بين ما تعود عليه من نصوص سابقة، وما يطرحه النص الجديد من تغييرات في الأفق الأدبي والذوق القرائي. (حمداوي،2015: 29ص).

عندما نطبِّق مثل هذه النظريات بمرتكزاتها في النص القرآني "لا نبحث عن بعض الإشارات المتفرقة لإثبات وجود علم من العلوم الحديثة فيه، بل نستخدم معطيات ذاك العلم لغرض الوصول من خلالها إلى نظرية معينة قد ضمنت ثنايا هذا الخطاب المقدَّس" (محمد، 2005: 9)، ويرى الجرجاني "أنا إذا كنا نعلم الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت وبانت وبهرت، هي أن كان على حد الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب" (الجرجاني، 1992، 8)، فتطبيق مثل هذه النظريات على النص القرآني يوضح الفرق الشاسع بينه وبين كلام البشر، ونحن على قناعة راسخة أن الخطاب القرآني ونصه هو الذي يشكِّل النظام اللغوي لا النظام اللغوي هو الذي يشكِّله، فللقرآن خصوصية تتمثل "في التمازج المتحقق في بُودقته بين بعديه الجمالي والتواصلي، فلا أهمية تذكر للإشارات الجمالية دونما انخراط شتاتها عبر بؤرة دلالية واحدة" (محمد 2005: 10).

وقد بنى جلُّ القدامى نظرتهم في التلقي على حضور سلطة قائل النص وقصديته، فهو الذي يحدِّد الفكرة وجوهرها ويختار لها المفردة المناسبة، وبناءً على هذه النظرة غاب دور المتلقي في قراءة المعنى، وإذا تعلَّق شأن المعنى بالنص القرآني أناب أناس –مفسرون وفقهاء وأصوليون – عن المتلقي في فهم المعنى العام، ويظل الفهم الخاص الذي يبنى عليه حكم شرعي ولا يتبعه عمل فقهي، يظل هذا الفهم مشروعاً مُشرعاً، يتجلى وفق مؤهلات المتلقي وطبيعة تكوينه الفكري وقدراته العلمية الأدبية ومهاراته اللغوية.

والقرآن سِفر محكم صالح لكل زمان ومكان، وهذا الصلاح يكون في هداية البشر، وتصحيح المعتقد، وتوجيه العمل، وتقعيد القانون، يصاحب ذلك الشعور والإحساس وعمق التخيّل وهذه الصفات الثلاث خاصة لطبيعة تعلقها ببواطن النفس البشرية وخباياها، وهذه الحالة ستُبقي نوعاً من تأويل النص القرآني حسب وعي القارئ وثقافته، وقد يتأرجح لديه في كل قراءة، لأن القرآن الكريم يجمع ألواناً شتى من القراءات الفكرية العقدية، والأدبية الإبداعية إلى غير ذلك مما يفوق تصور قدرات البشر، ويتجاوز محطات الفكر في كل عصر، " وكل قراءة رهينة بصاحبها تبقى السبل المؤدية إلى نقطة المعنى مختلفة، ولكل قارئ الحق في أن يخطَّ لنفسه سبيلًا جديداً على أن تصل جميع القراءات إلى النقطة ذاتها" (محمد 2005: 22) أو ما يقرب منها التي لا تبرح في جوهرها عقيدة الإسلام وببعدها الشمولي، "فإدراك معاني القرآن لا يحتاج فقط إلى القاموس وإلى الشرح وإنما يحتاج –قبل كل شيء – إلى نفس صافية وروح مشرقة تستطيع أن تشف، لا المعاني وحدها، ولكن ما وراء المعاني وألا تقف على مدلول اللفظ وحده ولكن على هذا الضوء النفسي الذي ينبعث من وراء المعنى" (صبيح، 1983: 122)، وعلى ضوء هذه المعطيات نتناول جماليات تلقي النداء:

دلالة النداء وبلاغته:

النداء في اللغة مصدر الفعل نادي بمعنى الصوت والدعاء(ابن منظور، 2003، 14: 228) وتكسر نونه وتضم (النُّداء والنِّداء) وفي الاصطلاح عرّفه النحاة "من منطلقين اثنين حُكمي إعرابي، ومن منطلق وظيفي، وقد تبنى البلاغيون التعريف الوظيفي للنداء" (تركي 2007: 136) وهو طلب المخاطِب إقبال المخَاطب عليه بحرف ناب مناب أدعو أو أنادي.

والنداء عند النحاة من أقسام المفعول به، و لابد من تقدير فعل متعدٍّ لذا قدروه ب(نادى) وجعلوه واجب الإضمار لأسباب منها " الاستغناء بظهور معناه، وقصد الإنشاء، وإظهار الفعل بنقله إلى الأخبار وكثرة الاستعمال، والتعويض عن الفعل بحرف النداء" (فارس، 1985: 183)، وحروف (أدوات) النداء

ثمانية هي: أ، وآ، وأي آي يا وأيا، وهيا، ووا، لكل حرف منها وظيفة خاصة فالهمزة لنداء القريب، والياء للبعيد، و(وا) للندبة، وقد ينزل البعيد منزلة القريب أو العكس لدواعٍ بلاغية، والأغراض الأصلية للنداء هي تنبيه المخاطَب (المنادى) وتهيئته لاستقبال شيء ما (طلب- إقبال) ومن الدواعي البلاغية المخرِّجة له " الإغراء والتحسر والتفجع، والتحبب والاستعطاف، والتحنن والتعظيم والتحدي والتعجيز والتشنيع ... (تركي،2007: 91 -94) والسياق وملابسة الحال هما اللذان يحددان نوعية النداء وداعيه البلاغي، "ويصح حذف حرف النداء (يا) دون غيره، حذفاً لفظياً فقط مع ملاحظة تقديره وحده..... وهناك مواضع يُمتنع فيها الحذف ويقل ويجوز)(عباس حسن، د ت 4/ 3، 4)

والنداء هو البنية الخطابية الأكثر دوراناً على الألسنة والأقلام لما تتمتع به هذه البنية من قدرة على التعبير عن مختلف الأغراض والمشاعر الإنسانية" (تركي، 2007: 137)، والنداء هو المؤشر الأول للتواصل من استدراج المخاطبين والإقبال على الاستماع باستخدام سلطة المتكلم المنادِي، و"النداء باب حيوي من أبواب النحو له قيمته وأهميته البالغة، ولعله أكثر أبواب النحو استعمالاً في كل مكان ودوراناً على الألسنة، ويلاحظ أن النداء يأخذ خطاً علوياً وسفلياً وأفقياً وحقيقياً ومجازياً، وينادى الفرد والجماعة وينادى العالم المرئي وما وراء الطبيعة وينادى العاقل وغيره والحي والجماد"(فارس 1985: 6)، والنداء من الأساليب الإنشائية وهو من الجمل الفعلية نحوياً عند معظم النحويين واللغويين إلا عند بعض المحدثين الذين حكموا عليه غير ذاك الحكم، يقول برجستراسر :" ومن الكلام ما ليس بجملة بل هو كلمات مفردة أو تركيبات وصفية أو إضافية أو عطفية غير إسنادية؛ مثال ذلك النداء فإن "يا حسن" ليس بجملة ولا قسم من جملة وهو مع ذلك كلام، ويشبه الجملة في أنه مستقل بنفسه لا يحتاج إلى غيره مظهراً أو مقدّراً...والنداء ومثاله نسميها أشباه الجملة"(برجستراسر، 1994: 125) وافقه في ذلك شكري عياد بقوله: "إما المنادى فهو شبه جملة باتفاق،لأنه غير داخل في الإسناد" (عياد، 1992: 130) وكذا حماسة عبد اللطيف (عبد اللطيف، دت: 33).

"الكثير في القرآن الكريم حذف (يا) النداء في نداء (رب) وقد ذكر (يا) في موضعين هما: " وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا {الفرقان/30}.." و " وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ {الزخرف/88}

وحذف (يا) في نداء الرب في خمسة وستين موضعاً (عبد الباقي، 1364هـ، 287- 288)، "ولم يقع نداء في القرآن بغير (يا) ولذلك لا يقدّر غيرها من حروف النداء عند الحذف"(عضيمة،1404، 1/ 3/ 299).

سورة مريم:

سورة مكيَّة ترتيبها في المصحف التاسع عشر، عدد آياتها ثمانٍ وتسعون، هي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول؛ نزلت بعد سورة فاطر، وقبل سورة طه في السنة الرابعة من البعثة، تبدأ بخمسة أحرف مقطعة هي (كهيعص)، ذكر المولى الحق فيها عدداً من الأنبياء المرسلين وربط ذكرهم بقضية الذرية والإنجاب ونفى ذلك عنه – سبحانه جلَّ في علاه- جاء في الظلال:" يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد; ونفي الولد والشريك; ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد، هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة، كالشأن في السور المكية غالبًا، والقصص هو مادة هذه السورة، فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى، فقصة مريم ومولد عيسى، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه، ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب وهارون وموسى وإسماعيل، وإدريس، وآدم ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث، ونفي الولد والشريك، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين" (إبراهيم،2003، 4/ 2300).

ومما لاحظناه كثرة النداء في هذه السورة وتعدد أساليبه فقد ورد ببنيته العميقة لفظاً في ثلاثة مواضع هي إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا 3، و فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا 52 وب(يا) ملفوظة أو محذوفة في اثني عشر موضعاً هي:

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا(4)
يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى (7)
قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا(8)
قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً(10)
يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(12)
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(27)
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا(28)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا {مريم/42}

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءِنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا {مريم/43}

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا {مريم/44}

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا {مريم/45}

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا {مريم/46} قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا {مريم/47} وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا {مريم/48} فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا {مريم/49}

ففي كل جملة ندائية في السورة براعة تصوير ودقة تعبير متناهية تناسب الحالة النفسية التي تصفها وتتوافق مع الجو العام للسورة وسنحاول الكشف عن جانب جماليات التلقي في كل جملة من تلك الجمل، ومن المداخل المناسب لهذا القول أن نستعرض جانباً إحصائياً لنداء هؤلاء...

"جاء نداء (مريم) في القرآن في خمسة مواضع ثلاثة من الملائكة ونداء من زكريا وآخر من قومها"(عضيمة 1404، 1/ 3/ 602)، و"نداء (إبراهيم) عليه السلام كان في أربعة مواضع اثنان من الله تعالى وواحد على لسان والده وواحد على لسان قومه"(1404: 1/ 3/ 601)، و"نداء (زكريا) عليه السلام كان في موضع واحد من الملائكة"(1404: 1/ 3/ 601) تكرر في آيتين.

القسم الثاني: جماليات التلقي في نداء زكريا ومريم وإبراهيم

نداء زكريا:

قال تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً(6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيّاً (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (11) يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً (12) وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً (13) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً (14) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً}.

لقد ورد النداء في هذا النص الحواري سبع مرات، خمس منها ينادي زكريا ربه:

- (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي....)
- (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)
- (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)
- (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ..)
- (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً..).

ونداء صدر من الملائكة::

- (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ).

ونداء من الله (عز وجل) ليحيى

- (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ).

ولئن كان ذكر الرحمة عنوانا لقصة زكريا: (ذِكر رحمة ربك عبده زكريا)، لقد كانت جملة الإخبار بالنداء هي مفتتحها: (إذ نادى ربه نداء خفيا) ثم إنَ ثمة اكتساء جديدًا اكتساه لفظ (نداء) النكرة تعظيمًا والواقع مفعولاً مطلقًا مبينًا للنوع بعد نعته بلفظ خفيًا بما يشي من توارٍ عن أسماع الناس وأبصارهم، ليكشف لربه عما يثقل كاهله ويكرب صدره، مسقطا أداة النداء (يا) دون غيرها من أدوات النداء" فقد وردت في استعمال اللغة محذوفة(عيد،1975 498): (قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا)، فهو يناجيه في قرب واتصال دون واسطة إذ إن المكروبين يستريحون للبث، وتعوزهم الشكوى ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق والثقل المضني "لقد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر؛ ليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه"(إبراهيم1412، 4: 2302). وفي الحقيقة أن حذف (يا) في القرآن كثير، و "كثر حذف (يا) في القرآن من الرب تنزيها وتعظيما، لأن في النداء طرفا من الأمر"(السيوطي دت، 4: 189) وقال ابن الأنباري تعليقًا على قوله تعالى: (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم)(البقرة، 89) " وتقتلون هو الخبر، ثم حذف حرف النداء، كما قال الله تعالى: (يوسف أعرض عن هذا) (يوسف 25)، وكما قال الله تعالى (يوسف أيها الصديق)(يوسف46) وحذف حرف النداء في كلامهم كثير"(ابن الأنباري،1996، 2: 720)

ثم إن زكريا أضاف المنادى إلى ياء المتكلم المحذوفة جوازًا (ابن مالك،1990، 3: 281) فبان الانتماء بهذا الترفيل، كما أن تصدير الجملة الأولى بالمصدر(ذِكر) بوح برفع مقام نبي الله زكريا واستجابة لدعوته وفي (ربك) خطاب لنبينا محمد (صلى الله عليه وسلَّم) (!)، تدل على أعلى مراتب الإنسان: العبودية لله تعالى، فما دام الله ربه، فنبينا عبده، وزكريا عبده، فاجتمعا في هذه المكانة العلية فبان التعالق بين الجملتين.

لقد سلك زكريا الترتيب المنطقي، فقدم شكواه وبثها ثم توسل إلى ربه بما سلف من الاستجابة ويُستحبُّ للمرء أن يذكر في دعائه نعم الله عليه وما يليق بالخضوع : (قال رب إني وهن العظم مني، واشتعل الرأس شيبا، ولم أكن بدعائك رب شقيا). ثم إنه صدر الجملة الاسمية المقيدة بـ (إن) المؤكدة والمضافة لياء متكلمه (إني) وخبرها الجملة الفعلية: (وَهَنَ العظم مني) "وإنما ذكر العَظْمَ لأنه عمودُ البدن وبه قوامُه وأصل بنائه، فإذا وهن كان ما وراءه أهون، وَوَحَّدَهُ لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ولو

جمع لكان قصدا إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن بعض عظامه، ولكن كلها"(الزمخشري،1407، 3: 4، القرطبي،2003، 11: 76) ثم استطالت الجملة بالعطف (واشتعل الرأس شيبا) كاسرة المعيار وخارجة مخرج الاستعارة بإسناد الاشتعال إلى منبت الشعر وهو الرأس، وجاءت (شيبا) تمييزًا، ومن هنا كانت أحوال التركيب قادرة على أن تكوّن مسارب جيدة تنساب منها مواجيد النفس.

لقد اطرح التعبير هنا النظام الآلي للغة، لينطلق إلى طاقات تعبيرية ثرة يمتاح منها، جماليات التلقي فيما يسمى بالخروج عن المألوف أو الانحراف المعياري بتجاوزه قوانين الاختيار وإخلافه المتوقع بحيث يحقق نوعًا من التفاعل النامي بين إيحاء الكلمات.

ثمة إضافة أخرى وهي أن تكرار النداء مرتين في آية واحدة، كشف مدى تضرع زكريا لربه وحرصه على قربه منه، ومنح المعنى الدلالي شحنة إضافية قوية التداعي (رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا)، ثم يسوق السبب: يرثني ويرث من آل يعقوب، واجعله رب رضيًا)، ويقال ورثته، وورثت منه لغتان: وقيل(مِنْ) للتبعيض لا للتعدية(الزمخشري،1407، 3: 5)؛ لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء.

جاء النداء منصهرًا في بوتقة التركيب العام مؤازرًا المعنى السياقي للنص، وإنك لتحس ذلك بوضوح بالغ حين تلحظ كثرة الحركات الطويلة المتضافرة مع النداء المتردد لإبراز إطالة أمد التضرع والشكوى: (إني – مني- بدعائك – شقيا – الموالي – ورائي –كانت – امرأتي – عاقرًا – وليًا – يرثني – آل – يعقوب – رضيًا)، ثم إن حديث زكريا هنا ليس في جوهره إلا وقفة متأملة مستغرقة في التمعن يحلو معها إطالة الشكوى والتضرع، هذا التضرع ناسبه هذا المعادل اللغوي الذي تبدي في تردد النداء مع كثرة الحركات الطويلة، وكأن هذا التضرع يستدعي بطء الإيقاع والإطالة في المد وتكثيره؛ " فالحركات الطويلة – أيًا كان نوعها – أطول مدى من أي صامت، فهي تستغرق من 225: 350 على 1000م / ث، في حين تتراوح مدة النطق بالصوامت من 60: 170 على 1000 م / ث"(العاني،1983، 115).

والمتوسم الآيات يلحظ أن زكريا في اثنين من نداءاته الخمسة شق بهما تسلسل الجملة وبتَكها في حين صدَر النداء في البقية:

- (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي....)
- (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ..)
- (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً..)
- (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)
- (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

لقد أكسب هذا الاعتراض بالجملة الفعلية الندائية – إذ إن المنادى مفعول في المعنى لأنه مدعو(ابن جني،3،1987: 336) في الجملتين الأخريين تنوعًا " فالاعتراض يدل على امتدادَ نفَس المتكلم، ويكسب الكلام جمالا ويمنحه قوة"(ابن جني،3،1987: 336) وهو في حقيقته وسيلة لإذابة جملتين إحداهما في الأخرى فيكرس بهذا النداء المعترض حالة التضرع.

ولئن ورد النداء في المرات الثلاثة الأولى على لسان زكريا محذوف الأداة لقد ورد النداء بالأداة من ملائكة الله (جل شأنه)، يقول الشنقيطي "فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَذْفٌ دَلَّ الْمَقَامُ عَلَيْهِ، وَتَقْدِيرُهُ : فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فَنُودِيَ :يَازَكَرِيَّا الْآيَةَ، وَقَدْ أَوْضَحَ جَلَّ وَعَلَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ هَذَا الَّذِي أَجْمَلَهُ هُنَا، فَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي نَادَاهُ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّ النِّدَاءَ الْمَذْكُورَ وَقَعَ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (آل عمران 39)(الشنقيطي، 1995، 3: 367)، ورد النداء بعد حذف لم يصرح به؛ إذ جاء النداء مباشرة دون تمهيد بما يدل على الاستجابة، فلم يقل القرآن فاستجبنا له وناديناه: يا زكريا، وفي هذا تعجيل بالبشرى وأبلغ في التأتي للمراد، فما إن نادى ربه حتى سمع نداء ربه فعرف أنه المقصود لا سواه فأصاخ السمع خافق القلب، راغب الخير، وزاد من تعميق هذا الشعور مجيء الجملة الاسمية المقيدة بـ(إن) المؤكدة المتصل بها (نا) وخبرها الجملة الفعلية الدائرة في فلك المضارع وفاعله أيضًا الضمير نحن المستتر، فظهر توكيد البشرى، بمؤكدات تساوقت بشكل جمعي: بالنداء والتأكيد بـ(إن)، ثُمَّ تكرار الضمير وأخيرًا تسمية الغلام فثبت حصولها؛ إذ إن سماع البشرى راحة؛ فالإنسان يظل مستوفز الأعصاب، لا يدري أيسمع بشرى أم إنذارًا حتى يُزْجَى له ما يُزْجَى، ويُقال له ما يُقال.

أما في نداء عبده يحيى: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة)، "فقد ترك السياق فجوة بين المشهدين على طريقة عرض القرآن الفني القصصي ليبرز أهم الحلقات الحيوية" (إبراهيم،1412، 4: 2304)؛ فمشهد نداء يحيى هنا بعد حذف لم يصرح به مشهد رائع عظيم يدل على مكانة يحيى، فلم يذكر الله عز وجل خبر مولده وطفولته، بل تجاوز ذلك كله إلى أن أمره بأخذ الكتاب بقوة؛ فالله ينتدبه للرسالة، ثم إن في هذا أيضًا تمشيًا مع غرائبية القصة، فالكلام لتوٍّهِ قد فرغ من سَوق البشرى، ثم إذا به يناديه مكلفًا إياه الرسالة، وهو صبي يافع، وتتجلى روعة التلقي وجمالياته في شكل الجملية الفعلية الإنشائية التي أعقبت النداء مباشرة (خذ الكتاب بقوة) فالقوة هنا صفة مجازية تناسب عنفوان الصبا وفتوة الشبيبة وفيها ملمح الأمر الساطع في مجابهة الباطل والصدح بالدعوة مع كل ذلك جاءت الآية (...وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) شارحة ضرب هذه القوة ومستوى المجابهة والمواجهة إنها قوة في غير عنف، ومواجهة دون صلف.

النداء في قصة مريم:

أما في حوار مريم مع قومها فقد ورد النداء مرتين اثنتين صدرا من جهة واحدة هي قومها: (يا مريم لقد جئت شيئا فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا). نداءان متخذان مهيع التنوع سبيلا، فمرة باسمها وأخرى ملقَّبة عن طريق المنادى المضاف: (يا مريم لقد جئت شيئا فريا، يا أخت هارون).

لقد لُوِّنَ النداءُ بأطمارٍ من التأنيب الممرور في الأول ومزيد منه في الثاني، ومتبوعا في الأول بجملة مثبتة ماضوية دائرة في ماضي المجيء منجذبة إليه ومقيدة بمؤكدين (لقد) فثبت حصول الأمر في اعتقادهم، ومتبوعًا في الثاني بجملة اسمية منفية منسوخة ب(كان) ومؤكدة بتكرار النفي: (ما كان أبوك.... وما كانت أمك).

إن هذا التقابل بين الجملتين التابعتين للنداء {لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} قد نقل الإحساس بالفكرة وَعَمَّقَهَا، وهو وسيلة لإثراء الدلالة من خلال الجمع المباشر الفجائي بين وحدتين متقابلتين، وهذا ما يمكننا وصفه بالمفارقة

التصويرية في التلقي وجمالياته التي تقوم على إبراز التناقض بين طرفين كان من شأنهما التوُّحدُ أو "استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل، أو بتعبير مقابل بل تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق فيما واقعه الاختلاف"(زايد،1981، 137).

النداء في حوار إبراهيم مع أبيه:

قال تعالى:

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لارْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا(48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)}.

تكوّن هذه الآيات نسيجاً نصياً منسجماً متماسكاً تخللته جمل النداء المتتابعة، سياق عام جاء فيه حوار إبراهيم مع أبيه، بعد مهاد بفعل الأمر المصدَّر بالواو ليضاف إلى سابقيه (ذِكرُ – واذكر في الكتاب مريم – واذكر في الكتاب إبراهيم) ليحدث الربط بين وحدات السورة، ثم وصف وتعليل يتوقف معه الحدث (إنه كان صديقًا نبيًا)، وهذه الجملة معترضة بين البدل والمبدل منه، حيث إن (إذ) اسم زمان واقع بدلاً من (إبراهيم)، والمراد: واذكر في إبراهيم زمان قوله لأبيه.

إن ذلك الحوار قد رقى إلى درجات من الإقناع والتواصل عالية بهدف الخيرية المطلقة في صورة أطّرها الرحم وذوو القربى مشتركة مع سابقتيها من القصص في هذا وموضونة في ذلك النسيج، ومن هنا فقد ناسب تلك الظلال بقاء الياء المشددة مردوفة بالألف من الآية (41) حتى نهاية الحوار في الآية (48): {عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا}، ومن هنا فالاتحاد في الفاصلة يُعد رابطًا ومظهر لوحدة الهدف في القصص الثلاثة.

وهكذا تؤدي مظاهر الإيقاع دورها في رسم الجو العام للسورة مشكلة ما يمكن تسميته بوحدة السورة، وقد كان من براعة الاستهلال أن بدأ حواره مع أبيه من خلال النداء (يا أبت) لخلق جو من التكافل الاجتماعي استمالة لقلبه.

ومن هذا النداء المفعم بالعواطف الإنسانية ينطلق إبراهيم في حواره، لتعلو درجة الإيقاع عن طريق الاستفهام القائم على إثارة الشك في نفس أبيه {لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}، وقد مهد لتلك الفاصلة (شيئًا) بتقديم الجار والمجرور (عنك)، وخص السمع والبصر لكونهما أبرز الحواس، وختم بالنفي العام (ولا يغني عنك شيئًا) تأكيدًا وتقريرًا للنتيجة المترتبة على نفي السمع والبصر؛ إذ إن هبوب عاصفة الشك في ذهن والده ربما تشغله عن استنباط النتائج المنطقية التي يفضي إليها الكلام.

وقد حفلت جملة الحوار بالاستمرارية الزمنية والإيقاع عن طريق عطف الأفعال المضارعة المنفية بأداة موحدة هي (لا) في قوله: {لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} ثم حذف المفعول به؛ لأن المهم لفت النظر للحدث نفسه في عموميته. وكما مهد للفاصلة بتقديم الجار والمجرور (عنك) على مفعول (يغني) كذا الأمر نفسه في قوله: (كان للرحمن عصيًا) وقوله: (فتكون للشيطان وليًا) بتقديم الجار والمجرور على خبر الناسخ، والولي هو التابع المحب لكونه بمحض اختياره وكذا (إنه كان بي حفيًا) لقد قام هذا التقديم الشائع الذائع هنا في الفواصل الأربع الأخيرة بوظيفة مزدوجة؛ إذ منح المقدم أهمية بذكره أولاً كما أعطى الكلمة المرصودة للفاصلة نتوءًا وإبرازًا فأبرز الدَّالَّيْنِ في وقت واحد جميعا معًا.

وإذا كانت الجمل الحوارية على لسان إبراهيم التزمت النغمة الهادئة، حيث لم يرد فيها استفهام بـ"هل" أو بالهمزة، فيما يطلق عليه النغمة المتصاعدة، فإن أباه التزم في جملته الحوارية النغمة المتصاعدة؛ إذ صدر جملة الاستفهام بالهمزة (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم)، متصاعدة لأن الحديث لم ينته بعد عندها، وإنما استطال لأنه يحتاج إلى إجابة ورد.

وهكذا، فإن "كل شيء في القرآن معجز من حيث قوة الإيقاع (الموسيقى) في حروفه وتآخيها في كلماته وتلاقي الكلمات في عباراته ونظمه المحكم في رنينه، وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات، وكون كل كلمة لفقًا مع أختها، وكأنما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته، وتوحّد غايته، ومعانيه تجدها

مؤتلفة مع ألفاظه، وكأن المعاني جاءت مؤاخية للألفاظ، وكأن الألفاظ قطعت لها وسُوِّيت على حجمها (أبوزهرة، 1970، 99).

لقد حفلت الآيات بحشد من النداءات التي تخللت الحوار، وسيطرت على بنية النص بحيث كادت في ظهورها أن تكون نتوءًا بارزًا لا تخطئه النظرةُ العَجْلَى، الأمر الذي يفضي إلى اكتساء بنية النص وتراكيبه بطاقات دلالية من خلال انثيال دلالات هذا الأسلوب في تواشج بيِّن مع بقية الظواهر التي لا يمكن بحال من الأحوال تغافلها؛ إذ إنها تتآزر معًا أخذًا وعطاء تأثرًا وتأثيرًا، سواء أكان ذلك على المستوى الصوتي أم الصرفي أم المعجمي أم التركيبي مما هو من وَكْدِ البحث تجليته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما في حوار إبراهيم مع أبيه فقد أزجى النداء خمس مرات:أربع منها على لسان إبراهيم مخاطبا أباه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فا تبعني أهدك صراطا سويا، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) وواحدة منها على لسان أبيه: (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ).

وفي ذلك التصرف الندائي في الوحدات الثلاثة دلالات وإلماعات جماليات نحوصلها فيما يلي مشفوعة بمناسبتها دون عزلها عن سياقها:

ورد النداء في حوار إبراهيم مع أبيه خمس مرات:

(يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا).

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا).

(يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا).

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا).

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا).

كان أهم ما يميز نداء إبراهيم أباه بعد إضافته لياء متكلمه هو التَّكْرَارُ: فالتاء في (يا أبت) في الأصل عوض عن الياء؛ " قالوا في: يا أبي، ويا أمي: يا أبتِ، ويا أمتِ، ويا أبتْ، ويأمتْ، فجعلوا التاء عوضا عن الياء ولذلك لم تجتمع إلا في الضرورة، كقول الشاعر (الأعشى،1974، 37، وابن مالك،1990 ،3: 37).

فيا أبتا لا تزلْ عندنا فإنا نخافُ بأن تُخْتَرَم

لقد أنشأ نوعا من العلاقة الطيبة والانتماء بالإضافة لياء متكلمه، كما كان هذا التماثل في التركيب بتصدير النداء أو ما يمكن تسميته بالتقطيع العمودي مفضيًا إلى ضَرْبٍ من التوحد، (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ – يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي – يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ – يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ)، وهذا ما يسمى بالعلاقات الرأسية، وذلك وسيلة من وسائل الترابط النصي.

تابع النداء:

ولئن كان التقابل أبرز ما يلفت نظر المتوسم في نداء قوم مريم والتوكيد لقد كان التنوع في الأسلوب والتردد بين الخبر والإنشاء رافدًا أصيلًا في تابع النداء هنا، مما كان وسيلة لتحريك الذهن وإشراك المستمع؛ وفي حوار إبراهيم بدأ بالاستفهام ملونًا بتكرار النفي: (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا) ثم التقرير المؤكد ب(إن) وقد (إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) ثم النهي (لا تعبد الشيطان) وأكد ب(إن): (إن الشيطان كان للرحمن عصيًا) ثم التقرير بالجملة الاسمية المقيدة ب(إن) المؤكدة وخبرها الجملة الفعلية الدائرة في فلك ماضي الخوف (إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن)، فَعُدَّ هذا أدبا من إبراهيم لأن الله وحده هو الذي من شأنه تقرير العذاب؛ فإبراهيم يخاف لكنه لم يحكم بالعذاب على أبيه، ثم إنه ساق الجار والمجرور من الرحمن ليومي بأن الجرم بشع فالتعذيب من الرحمن الذي من شأنه الرحمة، لكن لما كان الجرم كبيرًا والإثم عظيمًا وجب العذاب.

إن التأمل في التراكيب القرآنية باب واسع لا تنقضي عجائبه فلا حد لجماله ودقة إحكامه وروعة نسقه، ومن يطالع هذا السفر الخالد فسيردد بإمعان: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} (النساء: 81).

الخاتمة

هذه بعض أهم النتائج التي برزت من خلال العرض وهي:

1- تكمن جماليات تلقي نداء زكريا في الخروج عن المألوف والحذف الذي وسع مساحة الشعور والتخيل بين المعطى المحسوس والإدراك الحسي مما زاد قوة المعنى المراد.

2- لكل فكرة إيقاعها المناسب من حيث طبيعتها وطريقة عرضها ليؤدي إيقاع الفواصل دوره في التأثير على نفسية المتلقي، فجو المعجزات والغرائب والبشارات المتهادية الإيقاع في سكينة، ووقار يختلف عن جو إظهار الحقائق ودفع الشك.

3- يعد التنوع في الأسلوب والتردد بين الخبر والإنشاء في التركيب رافدًا أصيلًا في تابع النداء في السورة، مما كان وسيلة لتحريك الذهن وإشراك المستمع.

4- إن التقابل بين الجملتين التابعتين للنداء {لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} قد نقل الإحساس بالفكرة وَعَمَّقَهَا، وهو وسيلة لإثراء الدلالة من خلال الجمع المباشر الفجائي بين وحدتين متقابلتين، وهذا ما يمكننا وصفه بالمفارقة التصويرية التي تقوم على إبراز التناقض بين طرفين كان من شأنهما التوُّحدُ.

5- تتجلى جماليات وحدة النداء في حوار إبراهيم مع أبيه في التقديم والتأخير المرتبط بالفاصلة الحافل بالاستمرارية الزمنية والإيقاع من خلال عطف الأفعال المضارعة المنفية بأداة واحدة هي (لا).

6- المراجع والمصادر

1- فطوم، مراد حسن (2013) التلقي في النقد العربي في القرن الرابع الهجري، الهيئة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق (عدد الصفحات: 336)

2- حمداوي، جميل (2015) نظريات القراءة في النقد الأدبي، الألوكة للطباعة (عدد الصفحات: 65)

3- الدسوقي، محمد السيد أحمد(2008) جماليات التلقي وإعادة إنتاج الدلالة دراسة في لسانية النص الأدبي، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط 1، كفر الشيخ (236) .

4- محمد، عشتار داود(2005) الإشارة الجمالية في المثل القرآني، منشورات اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق (142).

5- الجرجاني، عبد القاهر عبد الرحمن(1992) دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط 3، القاهرة (684).

6- صبيح، محمد(1983) بحث جديد عن القرآن الكريم، دار الشروق، ط 3، (ع ص272).

7- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (2003) لسان العرب، دار صادر، 15 جزءاً الجزء 14، (ع ص 399).

8- تركي، مبارك(2007) النداء بين النحويين والبلاغيين، حوليات التراث، جامعة مستغانم الجزائر العدد 7، عدد الصفحات 169، من 135-147.

9- فارس، أحمد محمد(1985) النداء في اللغة والقرآن، دار الفكر اللبناني، ط1، (183).

10- حسن، عباس(د ت) النحو الوافي، دار المعارف ط3، مصر (803).

11- برجستراسر، ج (1994) التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ط 2، القاهرة (231).

12- عيَّاد، شكري(1992) مدخل إلى علم الأسلوب، المشروع للطباعة والنشر، ط 2، (146).

13- عبد اللطيف، محمد حماسة(دت) العلامة الإعرابية في الجملة العربية بين القديم والحديث، دار الفكر العربي القاهرة (424).

14- عبد الباقي، محمد فؤاد(1364هـ) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الحكمة القاهرة (781)

15- عضيمة، محمد عبد الخالق(1404هـ) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث القاهرة القسم الأول الجزء الثالث (599).

16- إبراهيم، سيد قطب(2003) في ظلال القرآن، دار الشروق، ط 32، (هذه الطبعة صفحتها متتابعة سورة مريم من 2298- 2322).

17- عيد، محمد (1975)، النحو المصفى، مكتبة الشباب القاهرة . (645).

18- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين،(د.ت) الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة الإرشاد المملكة العربية السعودية 4 أجزاء الجز ء الرابع 356.

19- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، (1996) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار الباز بمكة المكرمة، (880).

20- ابن مالك، جمال الدين محمد بن عبد الله الأندلسي (1990) شرح التسهيل، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد بدوي المختون، نشر دار هجر بالقاهرة 4 أجزاء الجزء الثالث (474)

21- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (1407هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، نشر دار الكتاب العربي، ط3 بيروت، 4 أجزاء الجزء الثالث (619)

22- القرطبي، أبوعبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، (1423هـ 2003م) الجامع لأحكام القرآن تحقيق هشام سمير البخاري، نشر دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية الجزء 11 (315)

23- العاني، سلمان حسن،(1403هـ : 1983م) التشكيل الصوتي للغة العربية، ترجمة الدكتور ياسر الملاح، الطبعة الأولى، نشر النادي الثقافي بجدة، (172)

24- ابن جني أبو الفتح عثمان (1407 هـ، 1987م)الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط الثالثة، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الثالث(423)

25- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار(1995) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، الجزء الثالث (519)

26- زايد،علي عشري (1981م) عن بناء القصيدة العربية، طبعة دار الفصحى، نشر مكتبة دار العروبة الكويت، (675).

27- أبو زهرة، محمد بن أحمد(1970)، المعجزة الكبرى..القرآن، نشر دار الفكر العربي (650)

28- الأعشى، ميمون بن قيس، (1974) ديوان الأعشى الكبير شرح وتعليق د/ محمد حسين، دار النهضة بيروت،(446).